

النِّسَاءِ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مَنْ أَنْزَلْنَا وَلَوْ أَعَجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ :

من لزام الإيمان بالله ذكر الله، وكما الإيمان ليس له حدٌّ أو زمان أو مكان أو حالة خاصة، كذلك ذكر الله على كل حال، ف«ما من شيء إلا وله حدٌّ ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حدٌّ ينتهي إليه، فرض الله ﷻ الفرائض فمن أداهن فهو حدهن وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمن حج فهو حده، إلا الذكر فإن الله ﷻ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه...» (١).

والذكر في الأصل حالة في القلب تظهر في مظاهر الأقوال والأفعال، ولأن اللسان يتأثر بالقلب في ذكره والقلب يؤثر فيه، لذلك يُسمى ذكره ذكراً وإلا فليس إلا لقلقة البغضاء.

(١) نور الثقلين ٤: ٢٨٤ ح ١٤٧ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن جعفر بن محمد الأشعري عن ابن القداح عن أبي عبد الله ﷺ قال: . . . ثم تلا آية الذكر فقال: لم يجعل الله له حداً ينتهي إليه قال: وكان أبي ﷺ كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وأكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله ﷻ فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين وقال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، قال: ذكر الله ﷻ كثيراً ثم قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال ﷺ: أكثرهم لله ذكراً وقال رسول الله ﷺ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة وقال: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا سَتَكُنُّوا﴾ [المدثر: ٦] قال: لا تستكثروا ما عملت من خير الله.

و«لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن ذكر الله عندما أحل له وذكر الله عندما حرم عليه»^(١). فاشتغال اللسان بذكر الله والقلب لاهٍ والعمل متخلف عن شرعة الله، إنه ليس ذكراً، بل هو مهانة واستهتار بالله، فليست عن ذكر الله، أو ويذكر الله في حلاله وحرامه!

ف ﴿ذَكَرًا كَثِيرًا﴾ تعني كثرة في عِدَّة وكثرة في عِدَّة، عِدَّة الجوارح والجوانج وعِدَّتْهَا، كثرة العدد بُعْدُهَا، ولكلُّ بكثرتِه، وكثرة العُدُد بحق الذكر وحاَقَه، دون أن يترك باطن الذكر إلى ظاهره، أو ظاهره إلى باطنه، أو يترك عُدَّتَه أو عدته أو عِدَّتَه إلى عُدَّتَه وليكن محافظاً على باطن الذكر كمحور أصيل يتبَّاه طول حياته، فذكره بالقلب هو قلب الذكر وسائر الذكر هو قالب الذكر!

ف ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بقلوبكم في عدد وعُدَد، وبألسنتكم في عدد وعُدَد، في حلکم وترحالکم، وعلى كل أحوالکم، حيث النسيان أياً كان وأَيَّان يخلِّف قَدْرَه العصيان لا تقل إن أكثرت ذكر الله بلساني قيل إنه منافق، ما دمت ذاكره بقلبك ولسانك ف«اذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون»^(٢) و«حتى يقولوا مجنون»^(٣)! فإنما المجنون من لا يذكر الله، والمنافق من لا يوافق لسانه قلبه أو قلبه لسانه!

ذكر الله من مخلقات الإيمان على قدره ومستواه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٤).

- (١) نور الثقلين ٤ : ٢٨٧ ح ١٥٦ في الخصال عن زيد الشحام قال قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده والإنصاف من نفسه وذكر الله كثيراً أما إني لا أقول . . .
- (٢) الدر المنثور ٥ : ٢٠٥ - أخرج الطبراني عن ابن عباس وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي الجوزاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : . . .
- (٣) المصدر أخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: . . .
- (٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ولأن في ذكر الله حالة إيجابية ذكراً لذاته تعالى وأفعاله وصفاته، وقصورنا الذاتي عن أن ندركه سبحانه قد يوردنا موارد الخطأ عند ذكره، فلنُشفعه بتسبيحه: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، من بكرة إلى أصيل ومن أصيل إلى بكرة كلما ذكرناه تسبيحاً بحمده أم في الوقتين الأصليين: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، لكي يصفو ذكره عن كل كُدر، وكما في حديث قدسي: «اذكرني بعد الفجر وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما»^(١).

فليكن المؤمن بتمام ذاته وتعلقاته ذكراً لله وتسبيحاً، أسوة برسول الله في تحقيق أمر الله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ...﴾^(٢) فيصبح حينئذ من المفردين^(٣) ولأن الرسول هو بنفسه ذكر الله: ﴿ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا﴾ فلا ينسى الله، لذلك لا يشمل خطابه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وإنما ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ اتقاءً عن زهوة القرب إلى الله وعماسوى الله.

فاتصال القلب بالله والانشغال عن الله اشتغالاً بالله في مراقبة دائبة، يجعل العبد ذكراً لله وسبحان الله ثم الله يذكره أكثر من ذكره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٤) وأين ذكر من ذكر؟ يقول الله تعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه»^(٥).

(١) المصدر أخرج أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ فيما يذكر عن ربه تبارك وتعالى: اذكرني... وأخرج أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: لأن أقعد أذكر الله وأكبره وأحمده وأسبجه وأهلله حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) المصدر أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: سبق المفردون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٥) أخرجه البخاري عن رسول الله ﷺ قال قال الله: ...

ولئن قلت إن بواعث النسيان كثيرة كموانع الذكر، فكيف للعبد الضعيف أن يذكر الله كثيراً؟ فالجواب:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾:

فصلوات الله عليكم هي إنزال رحمته وصلوات ملائكته هي استزادة فيها باستنزال رحمته، رحمتان اثنتان من الله تخلفها المحاولة الدائبة لذكر الله كثيراً، ف﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (١).

هنالك ظلمات تحول دونك والنور، ولكنك بحولك في كل أحوالك بذكر الله، وبحول الله وقوته، سوف تخرج من ظلمات النسيان إلى نور الذكر الإيمان ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: فالنور واحد هو ذكر الله الواحد والظلمات عدة هي ذكر غير الله فنسيان الله، وليس يخرج المؤمن من الظلمات إلى النور إلا بذكر الله كثيراً فصلوات الله عليه وملائكته إذ لا حول ولا قوة إلا بالله!

ومن صلوات الملائكة للذاكرين الله استغفارهم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾... (٢) كما ومنها استنزال رحمتها أخرى كرفع درجات: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾... (٣).

نحن نصلي الله والله يصلي علينا وملائكته وأين صلاة من صلاة؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «قلت لجبريل عليه السلام هل يصلي ربك؟ قال: نعم - قلت: وما صلاته؟ قال: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي» (٤).

(١) سورة محمد، الآية: ١٧ . (٢) سورة الشورى، الآية: ٥ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦ .

(٤) الدر المنثور ٥: ٢٠٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ قلت . . .

وقد يجمع هذه الثلاث انعطاف برحمة إنزالاً واستنزالاً وعبودية. فإنه صلة بين هذه الصلوات! وصلوات الله على عباده درجات أعلاها صلواته على رسوله، وأدناها على أدنى المؤمنين وبينهما متوسطات.

فإذ يصلي ربنا علينا فهلا نصلي على عباده الصالحين تخلقاً بأخلاق الله مهما كان خصوصها بخصوص المخلصين^(١).

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾^(٤٤):

أتراه سلاماً منهم على الله؟ ولا سلام على الله على أية حال لأنه هو بنفسه سلام فلا يحتاج إلى سلام من عبيده الفقراء إلى سلامه! أم سلاماً من بعضهم على بعض؟ وهو سلام المؤمنين في النشاطين دون اختصاص بـ ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ مهما عمّت النشاطين للمخلصين والمخلصين، حيث السلام يوم الدنيا يعم المؤمنين كما في يوم الدين!

إنه سلام من الله عليهم، على من هم ملاقو الله بالمعرفة القمة، وهم السابقون والمقربون وأفضل أصحاب اليمين يوم الدنيا ويوم الدين، وبالنسبة لسائر المؤمنين يخص بيوم الدين:

أترى ما هو الفرق بين صلوات الله علينا وسلامه حيث يختص سلامه بيوم يلقونه وصلواته تعمه ويوم الدنيا أم تخصها؟

إن سلام الله يوم الدنيا يختص بالمصطفين: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

(١) أذكر أنني كنت أصلي على آل محمد لما أصلي على محمد في المسجد الحرام فاعترض عليّ كيف تضيف الآل؟ قلت: لأن الرسول أمرنا أن نضيف إليه الآل، فقليل لي: أحياناً تصلون على أولاد الآل، قلت: إن الله يصلي علينا وبعضنا في أدنى مراتب الإيمان ونحن نصلي على الصالحين من آل النبي ولدهم! قيل لي: فلماذا لا تضيفون الصحب إلى الآل؟ قلت: تأسياً برسول الله إذ أضاف الآل إليه ولم يزد والصلوات درجات لا تجتمع في درجة واحدة لمن هم درجات، فلنصل على النبي والآل لأنهم في درجة ثم نصلي على غيرهم من الصالحين كلاً على حدة!

الَّذِينَ أَصْطَفَى ﴿١﴾ - ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣﴾
﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْلِيسَ﴾ ﴿٦﴾
وليحيى ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿٧﴾ وعيسى ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى
يَوْمَ وُلِدَتْ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿٨﴾ سلام الله التام على هؤلاء في الأولى
كما الأخرى إذ هم ملاقوا الله فيهما، ف ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ بالنسبة لهم، ثم من
يحدو محذاهم، فهؤلاء مذكورون على نحو الخصوص، وأولاء الأتباع تعمهم
﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ على وجه العموم، ثم من سواهم سلام الله عليهم يوم الأخرى
فإنه يوم لقائهم التام لقاءً دونما اختيار حيث تكشف الغطاء.

فالسالم في الآخرة يعمهم وكل أصحاب الجنة بعدما سلموا من كل
زين: ﴿حَيَّتَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ كما هنا، ذلك لأن سلام
الله خالصاً من اللآسلام يخص المخلصين أهل السلام، وأما الصلوات
فلأنها أعم من هكذا سلام كما للرسول وذويه، ومن سلام الغفران كما لمن
يتأتى منه العصيان، فهي - إذاً - تعم من يصلح لرحمته يوم الدنيا ومن
جرائها الأخرى وهي أخرى.

وهلّا يلقي الله أهل السلام يوم الدنيا حتى يختص سلامه بـ ﴿يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ﴾ في الأخرى؟

إن لقاءه تقرباً معرفياً بتوفية الجزاء دونما شوب من سلطان سواه، ذلك
لا يتحقق إلا يوم الأخرى، اللهم إلا لمثل القائل: «لو كشف الغطاء ما
ازددت يقيناً» حيث الغطاء الدنيا لا تغطي عليه ربّه فهو ملاق الله طول الحياة

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (٢) سورة الصافات، الآية: ١٨١. | (١) سورة النمل، الآية: ٥٩. |
| (٤) سورة الصافات، الآية: ١٠٩. | (٣) سورة الصافات، الآية: ٧٩. |
| (٦) سورة الصافات، الآية: ١٣٠. | (٥) سورة الصافات، الآية: ١٢٠. |
| (٨) سورة مريم، الآية: ٣٣. | (٧) سورة مريم، الآية: ١٥. |

في الأولى والأخرى، وأما الأجر الكريم فهو من مختصات الأخرى:
﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾:

ميزات خمس يحملها هذا النبي العظيم ما لها من سباق^(١) وكل ذلك بإذن تكويني من الله وتشريعي، لولاهما لم يسطع تلك الدعوة العالية النافذة، فهو الداعي الضالين عن الله إلى الله، وهو السراج المنير الذي أسرجه الله لينير الدرب على السالكين إلى الله، وهو الشاهد من الله وعلى عباد الله، نموذجاً بالغاً من رسالة الله، وتلقياً أعمال عباد الله، وإلقاء لها يوم لقاء الله!^(٢) إنه ليست الدعوة إلى الله فوضى وهرج مرج، ابتداءً وابتداعاً أو تطوعاً، فعلة وقالة وحالة من عنده نفسه، إنما هي ﴿بِإِذْنِهِ﴾ كرسالته وشهادته وتبشيريه وإنذاره وإنارته بسراجه!

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾:

فلمؤمنين البشارة والفضل، زيادة على ما عملوا، وعلى سواهم النذارة العدل، كلُّ كما يستحقه.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

لا تطعهم حتى فيما يعدونك من قبول الإيمان فلا خير منهم يُرجى، وما

(١) فسرنا الثلاث الأولى في الفتح ج ٢٦ من الفرقان فراجع.

(٢) وفي الدر المنثور ٥: ٢٠٦ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي منجدل في طينة وأخبركم عن ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت لها قصور الشام ثم تلا ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا...﴾ [الأحزاب: ٤٥].

فيهم ومنهم إلا شر ليس إلا ، ﴿وَدَعَّ أَدْنَهُمْ﴾ : اتركهم يؤذونك ما اسطاعوا حتى يأتي أمرنا ، ولا تؤذهم كما يؤذونك حتى يأتي أمرنا (١) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فيما أمرت وصبرت ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حيث يكفيك بأسهم ما لا يكفي سواه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ :

آية وحيدة في سائر القرآن تحمل سلباً لعدة الطلاق عمن طُلق قبل مسّها ثم وإيجاب المتعة والسراح الجميل ، تخصص آية البقرة الموجبة لتربص القروء بالطلاق على الإطلاق مسّها ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (٢) تخصصها بغير صورة المسّ .

وترى ماذا يعني هنا المسّ؟ أهو مطلق اللمس وإن لم يجامعها كما قد يروى (٣) أم هو - فقط - الوطء قبلاً أو دبراً حيث المسّ بالنسبة للنساء لم يأت في سائر القرآن إلا بمعنى الوحي (٤) ! قضية الأدب البارع في وحي

(١) «إذا هم» في الوجهين من إضافة المصدر إلى الفاعل أو المفعول .

(٢) سورة البقرة، الآية : ٢٢٨ .

(٣) كما في صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الرجل يطلق امرأته وقد مس كل شيء منها إلا أنه لم يجامعها ألبها عدة؟ فقال : ابتلى أبو جعفر عليه السلام بذلك فقال له أبوه علي بن الحسين عليه السلام : إذا أغلق وأرخى ستراً وجب المهر والعدة ، أقول : «ابتلى أبو جعفر» هو ابتلاء بسؤاله فليكن موضع تقية وإلا فلا ابتلاء ، ثم «أغلق وأرخى ستراً» أعم من المس كما هو أعم من الوطء ، وهاتان أمارتان لكون الجواب وارداً مورد التقية ، أو أن أغلق وأرخى ستراً كناية عن الوطء .

(٤) ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [مریم: ٢٠ ، وآل عمران: ٤٧] ولا يأتي الولد إلا بمس الوطء لا مطلق المس ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا . . . فَمَنْ لَوْ يَحِدُ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ [المجادلة: ٣ ، ٤] ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ . . . وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةٌ مِمَّا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦ ، ٢٣٧] .

القرآن، ثم المسُّ لغوياً أبلغ من اللمس دلالة على الوطء ﴿لَمَسْتُمُ
النِّسَاءَ﴾^(١) الموجبة للجنابة ليست إلا الجماع! ولئن أريد مطلق اللمس
الشامل لغير الوطء لبذلت المسُّ باللمس! ولئن شكَّ في إيجاب غير الوطء
من اللمس تربص القروء فالأصل هنا عدم القروء، لا سيما وأن آية القروء
مذيلة بما يلح بالوطء: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾^(٢)
إضافة إلى تظافر الروايات أن المس هو الوطء فقط دون سائر اللمس.

ثم المسُّ ليس ليختص بوطء القبل بحجة رعاية حكمة الحفاظ على
المياه وليس منشأ الولادة إلا في القبل! حيث العقيمة تتربص بوطئها،
القروء، كما الولود، بل يعم الوطء في الدبر، وعلَّ الحكمة الجامعة لموارد
العدة بالطلاق غاية اللذة الحاصلة بالمس قبلاً أو دبراً، وقضية إطلاق النص
في عدم «المس» على أية حال، إطلاق عدم الوطء على أية حال.

ثم ترى هل تخص ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أحكام الآية بالمؤمنات
المنكوحات بالعقد الدائم لمكان ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾؟ فالعدة إذاً ثابتة على
المنفصلات بغير طلاق كالمنقطعة التي توهب وقتها أو ينتهي، والأمة
المحررة، والدائمة غير المؤمنة، والمؤمنة الدائمة المنفصلة بغير طلاق،
فسخاً من أحد الزوجين بموجبه، أو انفساخاً للعقد بسبب، كالتى يتزوج
زوجها بنتها من غيره قبل أن يدخل بها، فإنها تنفصل عنه بمجرد العقد عليها
إذ تصبح إذاً أمّاً لزوجته. آمن هي من اللاتي لسن مؤمنات دائمات مطلقات
قبل الدخول؟

إن قيد ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ لا يقيد الحكم بهن، إذ ليس يعني إلا تلميحاً بأن
المؤمنين لا ينكحون إلا المؤمنات، دون المشركات: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

حَتَّى يُؤْمِنَ ﴿١﴾ ومهما سمحت آية المائة نكاحهم بكتابات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿٢﴾ فإنه سماح هامشي على متن النكاح بشروطه، ثم العدة ليست إلا لحرمة الموت ولا موت هنا! أم للحفاظ على المياه، ولا مياه هنا!

أم حرمة لقضاء غاية الشهوة الحاصلة بالدخول؟ ولم يدخل بها! وإذ لا حرمة لمؤمنة غير مدخول بها في عدة فبأحرى غير المؤمنة ألا تعتد، وآية البقرة مهما عمّت المطلقات في فرض العدة، ليست لتشمل غير المدخول بها قضية ذيلها، وعند الشك فالقدر المتيقن هو المدخول بها، واليائسة المدخول بها خارجة عن هذه الحِكم كما الصغيرة فإن وطء اليائسة ليس في غاية الشهوة، أم لأن فرض العدة بين الموت كعلة تامة، وبين وطء فيه إمكانية الحمل، والثاني منفي فيمن لا عدة لها، إن يائسة موطوءة، أم غيرها البالغة غير الموطوءة، وهذه ضابطة صارمة في العدة، والله أعلم بالحكم في كل عِدَّةٍ وَعُدَّةٍ.

ثم وقيد الطلاق وارد مورد النكاح الدائم، فليس ليقيد الحكم بمورد الطلاق، أو نتوسع في معنى الطلاق أنه الفراق عن النكاح أياً كان ولكنما المنقطعة التي تم وقتها ليست مطلقة على أية حال، مهما كانت الموهوبة وقتها والمباعة نفسها داخلتين في مطلق الطلاق.

ثم ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ تستأصل أية عدة وأن يوماً أو ساعة، ثم وتستأهلها لزواج آخر فور طلاقها، وتلمح أن عدة المطلقة حقاً لزوجها، ولكنه مرتبط بحقه لزاماً إذ لا يحق له التسامح عنه، فهو من الحقوق التي لا تسقط بإسقاط صاحبها كحق الزوجية والأبوة وأمثالها، لأنها حقوق ثابتة مرتبطة بالله وبالمجتمع، وفي زاوية ثالثة ترتبط بأصحابها،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.